رسائل تلّغرافيّة

(١٤)

فِقْهُ سُنَّةِ اللَّهِ فِي الحِفْظِ تُحْفَظُ وتَحْفَظُ

بَلَّغَهُ

ابن الكيال

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للَّه وحده والصلاة والسلام علىٰ من لا نبيَّ بعده ﷺ، **أما بعد**:

فقد قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ﴾ [فصلت: ٥١]، وقال -جل وعلا-: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ﴾ [الكهف: ٥٧]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ﴾ [الإسراء: ٦٧].

فلا يزال العالم أجمع يَجْأَر إلىٰ اللَّه بالتضرع والدعاء العريض، والاستكانة والخوف من الوباء المستشري السريع، وكثرة الموت التي شملت الأهل والأحباب والقريب والبعيد، مع الزيادة العالمية من انتشار هذا الطاعون الذي أهلك الملايين بَيْن الموت والعدوىٰ، وحَيْرة أهل الطبّ في السيطرة والقضاء علىٰ هذا المرض الخبيث، وهلاك الأخضر واليابس من التجارات والصناعات وتوقّف الاقتصاد العالميّ بِرُمَّته، والتأثير الرهيب علىٰ أمور الناس وشئونهم، و﴿لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم: ٥٨]، ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

وعليه، فقد كتبت هذه الكلمات تَذْكِرَةً وتَوْعِيَةً وتنبيهًا من الغفلة وتبصرة للَّه.

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾ [التوبة: ١١٢]، وقال: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾ [النساء: ٣٤]، وقال: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾ [سبأ: ٢١]، وقال: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾ [هود: ٥٧].

قال الطبري في «جامع البيان في تأويل آي القرآن» (١١/ ٤٧):

«أما قوله: ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ فإنه يعني: المؤدّون فرائض اللَّه، المنتهون إلىٰ أمره ونهيه، الذي لا يضيّعون شيئًا ألزمهم العمل به، ولا يرتكبون شيئًا نهاهم عن ارتكابه.

حدثني . . . عن ابن عباس قال: القائمون علىٰ طاعة اللَّه.

حدثنا . . . عن الحسن قال: القائمون علىٰ أمر اللَّه لفرائض اللَّه». اهـ

وقال الإمام أبو بكر بن العربي في «أحكام القرآن» (٢/ ١٠٢٠):

«الحافظون لحدود اللَّه: خاتمة البيان، وعموم الاشتمال لكل أمر ونهي». اهـ

ومثله قال القرطبي في «جامعه» (٨/ ١٥٥):

«أي: القائمون بما أمر به والمنتهون عمّا نهىٰ عنه». اهـ

وقال السعدي في «تفسيره» (ص: ٣٥٣):

«﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ بتعلّمهم حدود ما أنزل اللَّه علىٰ رسوله، وما يدخل في الأوامر والنواهي والأحكام، وما لا يدخل، الملازمون لها فعلًا وتركًا». اهـ

وعامة المفسرين قالوا بالذي ذُكر.

وقال السعدي في «تفسيره» (ص: ١٧٧) عند قوله: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾:

«﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾؛ أي: مطيعات للَّه تعالىٰ ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾؛ أي: مطيعات لأزواجهنّ حتىٰ في الغيب، تحفظ بعلها بنفسها وماله، وذلك بحفظ اللَّه لهن، وتوفيقه لهن، لا من أنفسهن، فإن النَّفْس أمَّارة بالسوء، ولكنْ من توكل علىٰ اللَّه

كفاه اللَّه ما أهَمَّه من أمر دينه ودنياه». اهـ

وقال ابن منظور في «لسان العرب» (٢/ ٩٢٩) مادة حفظ:

«الحفيظ: من صفات اللَّه ﷻ لا يَعْزُب عن حِفْظه الاشياء كُلّها مثقال ذرة في السموات والأرض، وقد حفظ علىٰ خلقه وعباده ما يعملون من خير أوْ شرّ، وقد حفظ السموات والأرض بقدرته، ولا يؤُوده حفظهما وهو العلي العظيم...

وفي التنزيل في أهل الكتاب: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤]؛ أي: استودعوه وائْتُمِنُوا عليه.

والمحافظة: المواظبة علىٰ الأمر، وفي التنزيل العزيز: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٣٨]؛ أي: صلوها في أوقاتها، قال الأزهري: أي: واظبوا علىٰ إقامتها في مواقيتها، ويقال: حافظ علىٰ الأمر والعمل وثابر عليه وحارص وبارك إذا داوم عليه، وحفظت الشيء حفظًا: أي: حَرَسْتُهُ وحفظته أيضًا بمعنىٰ استظهرته، والمحافظة: المراقبة». اهـ

وروىٰ الترمذي في «سننه» (٢٥١٦) وقال: حديث حسن صحيح، وأحمد في «المسند» (٢٦٦٩)، من حديث ابن عباس أن رسول اللَّه ﷺ قال: «يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ اللَّه يحفظك، احفظ اللَّه تجده تُجَاهك». الحديث.

قال المباركفوري في «تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي» (٦/ ٣٨٤):

«**«احفظ اللَّه»** في أمره ونهيه **«يحفظك»**؛ أي: يحفظك في الدنيا من الآفات والمكروهات، وفي العُقْبىٰ من أنواع العقاب والدركات **«احفظ اللَّه تَجِدْه تُجَاهَك»** قال الطيبي: أي: راع حقَّ اللَّه وتحرَّ رضاه تجده تجاهك؛ أي: مقابلكَ وحذاءك؛ أي: احفظ حق اللَّه تعالىٰ حتىٰ يحفظك اللَّه من مكاره الدنيا والآخرة». اهـ

• **كتب الإمام ابن رجب الحنبليّ كتابًا في جملة رسائله المجموعة في خمسة مجلدات فبدأ في المجلد الثاني بهذه الرسالة وهي: «نور الاقتباس في مشكاة وصية النبيّ ﷺ لابن عبّاس» (٢/ ١-١٠٨) شرح هذا الحديث شرحًا لم أرَ مثله، وهو مَليء بالفوائد رحمة اللَّه عليه، أذكر منه اختصارًا وجيزًا في نبذة منه، فقال:**

«يعني: احفظ اللَّه وحقوقه وأوامره ونواهيه، وحِفْظ ذلك هو الوقوف عند أوامره بالامتثال، وعند نواهيه بالاجتناب، وعند حدوده فلا تتجاوز ولا تتعدىٰ ما أمر به إلىٰ ما نهىٰ عنه، فدخل في ذلك فعل الواجبات جميعًا وترك المحرمات كلها، وذلك كله يدخل في حفظ حدود اللَّه، كما قال اللَّه في قوله: ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١٢]، وقال تعالىٰ: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٢، ٣٣]، وفسّر الحفيظ هنا بالحافظ لأوامر اللَّه، وفسّر بالحافظ لذنوبه حتىٰ يرجع منها، وكلاهما يدخل في الآية... كما في حديث أبي ثعلبة المرفوع: «**إن اللَّه فرض فرائض فلا تضيّعوها وحرم حُرُمات فلا تنتهكوها، وحدّ حدودًا فلا تعتدوها**» [رواه البيهقي في «السنن الكبرىٰ» (١٠/ ١٢-١٣)، والدارقطني في «سننه» (٤/ ١٨٣-١٨٤)، وأخرجه البزار بسند صالح، وصححه الحاكم في «المستدرك» (٣٤١٩)، ووافقه الذهبي، وأبو الطيب في «التعليق المغني» (٤/ ١٨٤)]...

قوله ﷺ: «**يحفظْك**» يعني: أن من حفظ حدود اللَّه وراعىٰ حقوقه حَفِظَه، فإن الجزاء من جنس العمل، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]، وقال: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وحفظ اللَّه تعالىٰ لعبده يتضمن نوعين: **أحدهما**: حفظه له في مصالح دنياه، كحفظه له في بدنه وولده وأهله وماله.

وفي حديث ابن عمر قال: لم يكن رسول اللَّه ﷺ يَدَع هؤلاء الدعوات حين يُمسي وحين يصبح: «**اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي، وأعُوذ بعظمتك أن أُغتال من تحتي**» [رواه أبو داود في «سننه» (٥٠٧٤)، والحاكم في «المستدرك» (١٩٠٢) وصححه ووافقه الذهبي]... وقد يحفظ اللَّه العبد بصلاحه في ولده وولد ولده، كما قيل في قوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٢] إنهما حُفِظا بصلاح أبيهما.

وقال محمد بن المنكدر: إنّ اللَّه ليحْفظ بالرجل الصالح ولده وولد ولده، وقريته التي هو فيها، والدّويرات التي حولها، فما يزالون في حفظٍ من اللَّه وسترٍ ما دام فيهم.

وقال سعيد بن المسيّب لابنه: يا بني! لأزيدنّ في صلاتي من أجلك رجاءَ أن أُحْفَظَ فيك.

وتلا هذه الأية: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٢].

وقال عمر بن عبد العزيز: ما من مؤمن يموت إلا حَفِظَه اللَّه في عقبه وعقب عقبه....

• **ومن أنواع حفظ اللَّه لمن حفظه**: أن يحفظه من شر كل من يريده بأذًىٰ من الجنّ والإنس، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]، قالت عائشة: يكفيه غَمَّ الدنيا وهمّها.

وقال الربيع بن خُثَيْم: يجعل له مخرجًا من كل ما ضاق علىٰ الناس.

وكتبت عائشة إلىٰ معاوية:

«إن اتقيت اللَّه كفاك الناس، وإن اتقيت الناس لم يُغْنوا عنك من اللَّه شيئًا»...

• **والنوع الثاني من الحفظ وهو أشرفها: حفظ اللَّه لعبده في دينه**: فيحفظ عليه دينه وإيمانه من الشبهات المردية والبدع المضلّة، والشهوات المحرّمة، ويحفظ عليه دينه عند موته، فيتوفّاه علىٰ الإسلام.

وقد ثبت في «الصحيحين» من حديث البراء بن عازب: أن النبيّ ﷺ علّمه أن يقول عند منامِهِ: «**اللهمّ إن قبضت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين**» [البخاري (٦٣٢٠)، ومسلم (٢٧١٤)].

وفي حديث عمر عن النبي ﷺ أنه علّمه أن يقول: «**اللهم احفظني بالإسلام قائمًا، واحفظني بالإسلام قاعدًا، واحفظني بالإسلام راقدًا، ولا تطع فيّ عدوًّا ولا حاسدًا**» خرّجه ابن حبان في «صحيحه» [(٩٣٤)، والحاكم في «المستدرك» (١٩٢٤) وصححه].

وكان عمر رضي الله عنه يقول في خطبته: «اللهم اعصمنا بحفظك وثبّتنا علىٰ أمرك».

وقد أخبر تعالىٰ في كتابه أنه وَلِيُّ المؤمنين، وأنه يتولىٰ الصالحين، وهذا يتضمن أنه يتولىٰ مصالحهم في الدنيا والآخرة، ولا يكلهم إلىٰ غيره، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ وَلِيِّۦَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]، وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾ [الزمر: ٣٦]، فمن قام بحقوق اللَّه عليه، فإن اللَّه يتكفّل له القيام بجميع مصالحه في الدنيا والآخرة، فمن أرادأن يتولىٰ اللَّهُ حفظه ورعايته في أموره كلها فليراعِ حقوق اللَّه

عليه، ومن أراد ألَّا يصيبه شيء مما يكرهه فلا يأتِ شيئًا مما يكرهه اللَّه منه.

فما يؤتىٰ الإنسان إلا من قِبَل نفسه، ولا يصيبه المكروه إلَّا من تفريطه في حق ربّه ﷻ، كما قال عليّ ﷺ: «لا يرجونّ عبدٌ إلَّا ربّه، ولا يخافنّ إلا ذنبه»، وقال مسروق: «من راقب اللَّه في خطوات قلبه، عصمه اللَّه في حركات جوارحه».

● **قوله ﷺ: «احفظ اللَّه تجده تجاهك»**، وفي رواية أخرىٰ: «**أمامك**»:

معناه: أن من حفظ اللَّه وراعىٰ حقوقه وجد اللَّه معه في جميع الأحوال يحوطه وينصره، ويحفظه ويؤيّده ويسدده، فإنه قائم علىٰ كل نفس بما كسبت، واللَّه تعالىٰ مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

قال قتادة: من يتق اللَّه يكن معه، ومن يكن اللَّه معه فمعه الفئة التي لا تغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يَضِلّ.

وهذه المعية الخاصة للمتقين هي في الحديث الإلهي: «**من عادي لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتىٰ أُحبّه، فإذا أحبَبْته كنتُ سمعَه الذي يسمع به، وبَصَرَه الذي يُبصر به، ويدَه التي يبطش بها، ورجلَه التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنّه**» [البخاري (٦٥٠٢)] وإلىٰ غير ذلك من نصوص الكتاب والسّنة الدالة علىٰ قرب الرّب سبحانه ممن أطاع اللَّه واتقاه وحفظ حدوده وراعاه». اهـ

قلت: فلقد أتىٰ ابن رجب الحنبليّ الإمام علىٰ مفهوم الحفظ من جوانبه فأحسن وأجاد ونصح فأفاد، فرحمة اللَّه علىٰ الحافظ الفقيه ونفعنا بعلومه آمين.

● فهذه سُنةُ اللَّه الكونية، من نصر اللَّهَ نَصَرَه اللَّهُ، ومن حَفِظَ اللَّهَ حَفِظَه اللَّهُ، ومن أحب في اللَّه وأبغض في اللَّه فقد نَصَرَهُ اللَّهُ، ومن والىٰ في اللَّه وعادىٰ في اللَّه

فقد نصره اللَّهُ، ومن أعطىٰ للَّه ومنع للَّه فقد نصره اللَّهُ، ومن نصر الحق ودفع الباطل فقد نصره اللَّهُ وحَفِظَه، ومن أمر بالمعروف ونهىٰ عن المنكر وأزاله فقد حفظهُ اللَّهُ ونصره، وسدّد خطاه وأرْشده، ووفّقه وعلّمه، وبصّره وفهّمه، ووعّاه وأدْركه، ونجّاه ونوّره، وفرّق به بين السنة والبدعة، وبين النفاق والإيمان، وبين الميوعة والرجولة، وهذا فضل اللَّه يؤتيه من يشاء واللَّه ذو الفضل العظيم، قال اللَّه تعالىٰ: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ﴾ [النور: ٥٤-٥٥]، وقال: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، فكل هذه الآيات البيّنات تدخل تحت فقه الحفظ، وكيف يُحفظ المكلّف؟! ثم طبّق هذا الفقه فتعلم: متىٰ تُرفع عنّا الكورونا؟

قال السعدي في «أصول وكليّات من أصول التفسير» في آخر الجزء الخامس من تفسيره «تيسير الكريم الرحمن»، وقد جعلها المحقق آخر التفسير (ص٩٤١-٩٤٩) قال:

«الرقيب: المطلع علىٰ ما أكنّته الصدور، القائم علىٰ كل نفس بما كسبت، الذي حفظ المخلوقات وأجراها علىٰ أحسن نظام وأكمل تدبير.

والحفيظ هو: الذي حفظ ما خلقه وأحاط علمه بما أوْجَدَه، وحفظ أولياءه من وقوعهم في الذنُوب والمهلكات، ولطف بهم في الحركات والسكنات، أحصىٰ

علىٰ العباد أعمالهم وجزاءها». اهـ

فللحفظ علل، وللنصر شروط، وللتمكين أسباب، وللخذلان موانع، والعبد في منظومة الأسباب والمسبَّبات بين فقه أن تُحْفَظ وتَحْفَظ.

فإن حَفِظْتَ حدودَ اللَّه حُفِظْت، فالحِفْظُ الذي هو «تَحْفَظ» ثمرة لـ«تُحْفَظُ»، سَبب ومُسبب، والحافظ هو اللَّه، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه، و«**الحكم علىٰ الشيء فرع عن تصوّره**»، فلن تحكم علىٰ الشيء حتىٰ تتصوّر ما هو الذي ستحكم عليه؟ فإن أتيت بالعلل وحققت مناطها، والشروط وأتيت بها، وللأسباب فأخذت بها، وامتنعت عن الموانع حُفِظت ومُكّنت ونُصِرت ووُفقت وسُددت، فقد ألممت بفقه الحفظ: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]، والحمد للَّه رب العالمين، وهذا عام علىٰ كل الناس حتىٰ تُحْفَظ الأمة، وتُفَرَّج المُدْلَهِمَّة، وتزهو الثمرة.

وللَّه الأمر من قبل ومن بعد.

بلَّغه

الفقير إلى ربّه

ابن الكيَّال